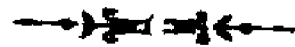


الكتاب السادس

ميلاد بطل



كفاهم فخراً أنهم كسبوا هذه المعركة
بأنه أهدأ منهم لم يترزعزع عن موقفه
محمد نجيب

الباب الأول

البيعة العامة



مشيت مصر في اليوم التالي وراء فتاها ، ربيع مليون يسعى في ربيع مليون ، من قلب القاهرة إلى قلعة صلاح الدين ، يتهدد ويتوعد ، وينادي بتجميع السلاح لغد . ويضيف إلى تاريخ وفاة رجل ، تاريخ ميلاد بطل .

كانت تودع شهداء الجامعة بالأمس الدابر ، فلما ثار لهم في طراز بطولته العالي ، مكان استشهادهم ، خرجت مصر تحتفل بميلاد شيء جديد . مشيت مصر في يوم أحمد عصمت ، على نطاق أوسع ، لأنها هبت تحي من ثار لها وللسابقين من شهدائها ، وكانت في بطولته معان شتى أدركتها بفرائزها .

لم يكن رجل حرب فصار بطل حرب .

خرج وحده يطالب بدم الشهداء جميعاً فكان أباً للشهداء لا مجرد زميل لهم .

وكان زوجاً ، وكان ابناً ، وكان أباً لأبناء ، بعضهم حسبته ليشد وثاقه إلى الحياة الدنيا بأمراس كتان من المبخلة والمجينة .

ولم يكن فريسة للغرور أو للفراغ أو للحاجة أو للاضطهاد ، فيقال
طفع الكيل وفاض ، بل كان موظفاً ناجحاً ، وطياراً له في آفاق مستقبله
كما كان له في ماضيه غزوات ، فكان له من عمله ما يشغله ويفوق نجاحه
فيه الحساب . وكان من قومه في الثروة والذروة . ذا جـدة وشباب
تغريان بالرفاهة والنعاء .

وكان غير متم لحزب أو جماعة ، حيث تستأثر مبادئ الجماعات
بالغلاة من المؤمنين وتسوقهم إلى مصايرهم في صميم خططها . ولم يك
رجل اندفاع أو مغامرة أو زهرة في كمها لم تنفتح بعد ، حيث الشباب لا
يهاب . بل كان نضو أسفار ، وحليف تجارب ، وحمال مسؤوليات وأخا
حساب ، وقوة أعصاب ، خرج في سبيل الله ، لا مستبقياً لنفسه فرصة
في أن يعود ، فاستشهد كما يريد ، وحيث أراد ، في غير نكرة أو إمعة ،
بل في قائد من كبار القواد .

ولما نهد إلى القتال نهد بسلاحه الذي يحمله ، أو سلاحه الذي جمعه ،
ليجود به وبنفسه معه ، ويظفر لامته بما لا يظفر به إلا الجيش اللعجب :
ألا وهو رأس جيش العدو .

وكانت مئات الآلاف تتخيله وتتصوره ، من بديع صوره ، وسمات
القواد في طامته ومظهره ، لو كان على رأس جيش في التل الكبير المكان
حقيقاً أن يحمل لمصر ألوية النصر .

وكانت وصيته لامته في صحف الصباح حكمة بالغة ، إلى جوار صوره
وإلى جوار عمله ، فكان آية .

والحق أنها فهمته من صحيح إخلاصها وصميم إخلاصه ، ففهمت جملة
الأشياء دون عناء ، ككل عمل كبير يحدث الأثر الكبير منظوراً أو غير
منظور . وما فهمت مصر إلا نفسها إذ عرفت ما يجب لها على أبنائها

وكيف ينفض به من صدق . فأقبلت تحتفى باليوم السعيد من أيام ميلاد روحها الجديد .

من أجل ذلك سالت الأمة في جنبات العاصمة لا لتشيعه ، ولكن لتبايعه ، باللغة التي تبايع الشعوب بها . فكانت البيعة العظمى فوق أنها الجنازة الكبرى .

مادرت مصر بدفن صبحت أم على البعث أفاقت من كراها
وكان الناس لما نسلوا شعب السيل طغت في ملتقاها (١)
وأيام الجنائز الكبرى من يوم مشيت فيه أكبر جنازة شهدها
الآحياء في عددها وفي ثورتها ؟ فكانت يوم نداء ، المستقبلين من الشهداء .
يطلق فيها الرصاص من جنبات الصفوف للاستعداد والاستعداد .

لم يكن يوم بكاء ولا يوم دعاء ، بل كان يوم المعركة أو اليوم الذي يسبق المعركة . لتكون مصر أعز نصراً وأحضر جنداً .

لم يكن فيه من مظاهر الجنازة قدر ما فيه من طلائع الملحمة - لا نشيج ولا عويل ولا استعبار ، بل كزئير الأسد وصيحات الانتصار ، وأنفس ترنو إلى الصور المحمولة على الأعلام ، لفتى مقدم ، يطل على أمته من سماء المثل العالي يقول لها : وما هي ذى هامة رأس جيش العدو . فعليك ما بقي . وأقبل في أثرى ، .

وما هي إلا دعوة من سماء البطولة لنصر جديد في أرض القتال .
وفيها هوى مصر وعميق عقائدها ، حيث الجيوش الغازية تدنس الأرض المقدسة التي مشى عليها الرسل من « يوسف » و « موسى » و « عيسى » ، والمسلمون الأولون والعرب ، وتقطع الطريق على شعب يريد ليضع نفسه في القرن العشرين بعد الميلاد ، حيث كان بين الأمم في القرن العشرين قبل الميلاد ، قبلتها وقودتها .

• • •

اجتمع الشعب لتكريم المثل الأعلى للفداء عند القبة الفداوية ،
لكأن بعض المصادفات والأسماء من عناية السماء - وضاعت عليه القاهرة
بما رحبت فلم يبدأ تشييع الجنازة إلا بعد أن كان أول المشاة أبعد عن
الجثمان بكيلومترات .

وتحركت الجنازة في الضحى حتى إذا ارتفع النهار كانت تتحدر إليها من
كل حي ، بل من كل درب ، جموع زاخرة كالنهر تنصب فيه فروع وسواقيه .
فلم تقطع الكيلومترات الباقية إلى ميدان الأوبرا إلا في نهار كامل : تتقدمها
عربات الجيش وعربات الإذاعة بمكبرات الصوت وعربات البوليس
لتنظيم المرور وجنود الجيش متشابكي الأيدي على جانبي الطريق .

وتقدمت مصر الرسمية بالوزير مندوب رئيس الوزارة والوزير
رئيس الكتائب ، والوزراء والكبراء والمرشد العام للإخوان المسلمين ،
ومفتي فلسطين ، ورجال القضاء والعلماء وأساتذة الجامعات ورجال
الدين ، ورجال الصحافة يحملون على الأعلام أسماء الصحف ، ومندوب
القيادة العامة للقوات المسلحة ، والشيوخ والنواب ، ورجال الأمم العربية
ومثلي الهيئات السودانية ورجال الإدارة ورجال الجيش والبوليس على
اختلاف وحداته .

وتتابع ممثلو الأفراق والجماعات فكانت مصر كلها حاضرة ، في فرق
للفدائيين في ريعان شبابها ، وأخرى لم يسلم رجالها العشرين ربيعاً ، إلى
جوار صفوف جامعة القاهرة ومندوبي جامعة الاسكندرية وصفوف جامعة
إبراهيم وشباب الأزهر ، والعمال الحكوميين بالوزارات والمطبعة الأميرية
والترسانة وعمال النقل وعمال الترام ، والمدارس الثانوية مدرسة مدرسة
والمدارس الابتدائية عشرات ، ثم عامة الأمة من سائر المشيعين . وما هم
إلا مصر في براءة ظهرها تعرض نفسها في يوم له ما بعده . . . بل كان

ثم ابطالون ويونانيون يهتفون مع الهاتفين ويرفعون أكفهم وقبضات أيديهم في كبد السماء ، كأنما يتوعدون عدواً مغيراً من وراء السحاب ويقولون « مصر للصريين ونحن من مصر » .

وسالت أنهار الصحف الكبرى والصحف الأخرى غداة الاستشهاد يوماً بعد يوم ، صفحات بعد صفحات ، فياضة بالدراسات عن البطل الجديد في حياته ونشأته ومعركته ، فكانت الحديث المهم والمثل الملهم ، والموقعة الكبرى في « حرب القنال » .

ووصفت الصحافة يوم ١٥ من يناير ، كما سجلت يوم ١٤ من يناير بما تقدر الأقلام عليه . وفي ذلك بعض ما تقول إحدى الصحف : « لم يكن أمس يوماً واحداً من حياة مصر بل كان سنين طويلة عاشتها مصر تمتلئ الصدور بالكرامة مزدهية القلب بالعزة فخورة بأن ركب التاريخ يودع ابنها البار وشهيداً البطل أحمد عصمت إلى مقبره الأخير بعد أن أثبت للدنيا بأسرها أن مصر تنجب الرجال ، أي الرجال ، وأن أبناء مصر يدفعون عنها ببذل الروح والنفس ، يدفعون عنها بالدم المراق والعمر ، أقل ما يتخذش كرامتها حتى لو كان سباً وضيعاً يستفرغه من طبعه الوضع وقع من سفهاء الانجائين .

« ولم يمتلئ أمس بشعور واحد من قلب مصر بل لقد انصبت فيه مشاعر كثيرة وحارة كانت جميعها تلتقي عند تخليد البطولة ، عند تمجيد الحرية ، عند تقديس الفداء . لقد طرحت القاهرة أمس بكل من فيها . طرحت الأعمال عن كاهلها وتوقفت فيها كل معالم الحياة الصاخبة المنهمكة لتتسابق عند المكان الذي تقرر عنده أن تحمل مصر نعش الفقيد على الأعناق وكان البارحة كأنه يوم بعث ذهل الجميع فيه إلا عن الشهيد ...
تزامي

أيها الأنفس المشتتة بالفخار . تراحمي تراحمي أيها القلوب الخفاقة
بالعزة . تراحمي أيها الأرواح المتطلعة للحرية . تراحمي تراحمي أيها الألوف
المؤلفة من شعب مصر . وميدى يامصر واضطربي أفواجا أفواجا وأنت



إلى جنة الخلد يا عصمت

تتدافعين بالأيدي وبالمناكب، وأنت تتسابقين بالآلاف المؤلفة إلى القبة
الفداوية . إلى المكان التاريخي الذي شهد مصر تحمل عنده على الأعناق
شهيدها الخالد أحمد عصمت إلى مقبره الأخير .

° ° °

هي ذى مصر تعلم الغرب مرة أخرى أن النصر عمل من أعمال النفس .
وأن الاستعمار يلفظ فيها آخر أنفاسه كما لفظت فيها الغزوات الصليبية
آخر أنفاسها . وما الاستعمار في حقيقة أمره إلا الحرب الصليبية قد
استحالت حربا عصرية ، لامتناهات دم الشعوب الضعيفة .

ولم تعد مصر ضعيفة، بل أصبحت مدرسة جهاد تعلم المشرق والمغرب
وبنى العروبة ، حيثما كانوا ، كيف يضحون في سبيل أوطانهم .

إليك مثلا بعض فقرات، معربة، مما حوته افتتاحية إحدى الصحف
الفرنسية بالجزائر^(١).

مصر في المعركة

استشهد الطيار أحمد عصمت برصاص الإنجليز إذ رفض أن يرض
عليه الإنجليز قانون سيادتهم فإلى ذكرى ذلك الطيار الشهيد الشاب ،
والأب السعيد لأطفال ثلاثة ، الذى وهب روحه فى وقار وكرامة ،
لأنه يعرف أنه إذا روى البذور بالدموع ستجنى أمته سنابل الحب فى
سرور وجذل :

لنقلها مرة أخرى ولنكررها دائما : إن الوطنية هى روح الكفاح .
ومصر التى أسمع منها الآن وقع قطرات الدمع تروى شعورها العام
بهذه الروح ، تتردد فيها عبارات الوطن والشرف والتضحية كما تتردد

(١) الجمهورية الجزائرية للكاتب الجزائرى الكبير مصطفى بشير بتاريخ ١ / ٢ / ١٩٥٢

العبادات في الصلوات الخمس ، وقد عزمتم كرامتها أن تقيم الدليل
الآبدى على عظمتها ، يبذل دمها . وهذه الفكرة التي تعلق على كل اعتبار
سياسي ثانوي ، هب بنوها إلى منقطة قتال السويس يواجهون جيوش
المستعمرين التي جيشها هنالك تشرشل (لحماية التجارة الدولية) .

وهكذا تلقى مصر على العالم عامة والعرب خاصة درسا رائعا في
الكرامة ، وتوقف وحدها لا تستمد العون إلا من قواها المعنوية وتبعث
غيتها إلى الموت راضية بتضحية مصالحها وتقديمها الحاضر في سبيل الخلاص
من مستعمر يتلبس الثغرات الخنقة وهدم استقلالها . وعلى هذا يرى الإنجليز
ضربات البطولة التي يسدها الفدائيون إلى قلوبهم بعدم الحكمة والتبصر
وبالجهل والتعصب ، دون أن يعترفوا بأنها تضحيات مادية هيئة القدر في
سبيل القيم العليا ، وليس أحكم ولا أجدى مما يصنع المصريون ، فهم لا يختارون
مصلحتهم ولا يهدرونها بل تملكونهم أمور أعلى ، يسرون إليها دون أن
يلقوا بالهم إلى صغائر لن يكون لها قيمة إلا إذا قام الوطن على أساسه .

فليست التضحية خسارة كلها ولكنها عملية ، مقايضة ، تقايض فيها
مصر عرضا ماديا بأعراض أعلا وأسمى ، وليس البطل تاجرا ولا سمسارا
ولا رجل اقتصاد وسياسة ... لكنه يلقي في الميزان بقيم عليا يضعها في
أساس استقلال بلاده .

ومصر إذ تمارس هذا الاتصال بشعلة البطولة المقدسة تجدد ينبوع
حياتها ، وتسير في منعطف جديد تشرق الشمس فيه . في حين أن نجم
الاستعمار الذي يستنجد له تشرشل معونة الأمريكان ... ينكدر
وينكدر ...

في ١٥ من يناير شيعت مصر باحتفال مهيب رفات واحد عصمت ، إلى
مقره الأخير ... وكانت بالأمس تشيع بنفس الطريقة ، وب نفس الإجماع

بطلين آخرين هما الطالبان ، عمر شاهين ، و ، أحمد منيسى ، وهما فدائيان
أمرهما البريطانيون وقتلوهما بعد عذاب واصل .

وسيبقى أحمد عصمت كالنجم بين أبطال الشباب بحياته المثالية التي
ترمز الى البعث العربى ، وتستفتح السبيل فى نفس الوقت أمام مستقبل
مصر ، فلمقد كان يستطيع بماله الكثير أن يسلك مسالك النعمة والدعة
وهو وحيد أهله وسلالة أصليين كبيرين من عائلات مصر ، لكنه آثر
طريق الكرامة والفحولة فى أداء الواجب ، وكان يعمل فى طليعة نسور
شركة مصر للطيران من أعوام رافعاً رايات مصر فى السماء ، وكان ذلك
حسبه ليحول دون انخراطه فى صفوف الفدائيين ، لكنه كان بين ساعات
فراغه ييم شطر منطقة القنال لمساعدة ضحايا الاستعمار بأموال قال : إنه
مدين بها لمصر ،

وهى كلمة بطل سنجمل من جسده الذى يبلى معنى خالداً لا يعرفه
البلى أبداً .

وفىما هو فى طريقه للمرة الأخيرة إلى القنال لتنفيذ مشروعه المقدس
أوقفت قوات العدو سيارته وطلب القائد تفتيشها .. وكان ، أحمد عصمت ،
هادىء الطبع لكن الإهانة كانت قاسية فأبى أن يخضع . وتعالى به كبرياء
الأحرار على أن يسلم للأجنبي بقانون السيادة على أرض الوطن فأرداه
قتيلاً وجنديين كانا معه ؛ وأسلم روحه إلى بارئها .

لكنه قبل هذه التضحية القاسية لتبقى مصر فى شكتها ، حاملة سلاحها ،
حتى تستتم حريتها ، .

• • •

أوفد الملك السابق وكيل الخاصة الملكية إلى زوج البطل الشهيد يعلن
لهاء تقديره شجاعة الشهيد ويرجو لها ولأولاده أحسن العزاء وقد أمر

أن يتعلم أبناؤه بهي الدين وأحمد وفاطمة على نفقته طول مدة دراستهم كما رأت الأميرة فريال أن تقدم هدية منها ، مصحفاً كريماً إلى بنته فاطمة ، وطلاب صورة للفقيد لضمها في المتحف الحربى إلى صور أبطال حروبنا .

كانت هذه التحية من الملك هى التحية الوحيدة التى تقدمت منه فى كل حوادث الاستشهاد فى حرب القنال .

وما كانت التحية لأحد عصمت أو لأطفاله أو لآله ، فإنما راغ الملك من حرب القنال حرصاً على الملك . لكنها البطولة العليا ، أو البيعة العظمى ، بجلجلتها المدوية تخيف الذين يخافون من الخوف نفسه ، فلا يخفون ولا يستخفون . ولا يملك المسكابر إلا أن يحنى هامته أمامها . وأول الذين يحنون هاماتهم أمامها هم العدو .

تظاهرت كثرة المدن مظاهرات صامته أو صاخبة . وسمع المصلون فى خطب الجمعة ١٨ من يناير سنة ١٩٥٢ أئمة المساجد وشيوخ الوعظ يستنهضون الهمم من مثاله العالى ، وأطلقت البلدان على شوارعها اسمه ، وسمت شركة طيران طيارة لها باسمه ، وسمى الآباء مواليدهم باسمه ، ومنهم من ذكره عندما ولد له فى باريس .

وأعلن شباب الجامعة إقامة تمثال للشهيد . وسمت بلدية القاهرة باسمه أكبر الشوارع فى منطقة عين شمس ، شارع الشهيد أحمد عصمت ،

وأذاع الراديو المصرى فى الثامنة من مساء ٢٤ من يناير على موجات العالم تحت عنوان [أهم حوادث الأسبوع] بلسان واحد من النواب الأحرار فى مجلس سنة ١٩٥٠ كان من أصدقائه الخالص .

و ظاهرة من ظواهر البطولة لم يسبق لمصر بها عهد . . . ذلك أن فتى مصرياً من أكرم أرومة وأشرف خؤولة وعمومة ، هو البطل الشهيد



الجنادة الصامدة يتقدمها رجال الدين طنطا في ١٥ من يناير سنة ١٩٥٢

الطيار أحمد عصمت . ودع أهله وأفاله الثلاثة وداعا ابناً عاطفياً حاراً وكأنما كان يعلم في قرارة نفسه أنه الوداع الأخير . وركب سيارته ميمماً شطر المنطقة التي يستشهد فيها الآباء من بني وطنه غير منتم إلى حزب سياسي ولا هيئة أو جماعة بل بوازع من قلبه الكبير النابض بالوطنية السامية ، بدافع نقي من إيمانه الكامل بكرامة وطنه . فواجه المستعمر بمفرده وفي وضوح النهار وعلى مرأى ومسمع من مرابطيه الذين استيقظهم المستعمرون في منطقة من نقط التفتيش . فأنبرى الكبير القوم وقائدهم يرفع في وجهه صوت مصر التي لا تصبر على الهوان . ولم تثنه المدافع المسددة والجنود الحاشدة ، فلما نأى كبيرهم بجاذبة واسعة كبر ، أقدم الطيار على الموت المحقق فروى أرض الكنانة من دم البريحيادير ودماء حراسه واستشهد أحمد

لتوه بطلا للأبطال ، وسيداً للرجال ، ومعدناً للشجاعة والبل والشهيد
بين الأمثال .

وخرجت مصر كلها تحتفل بميلاد البطل الشهيد ولا أقول بتشجيع
جثمانه الطاهر ، فإن الأبطال لا يموتون . وإنما هم يولدون من جديد
ذكراهم ماثلة للبيان ومثواهم في كل قلب وأسماءهم مفخرة كل لسان ،

بلى .. أصبح أحمد عصمت معلماً من معالم أمتنا . وهرما من أهرام
تاريخنا . يضاف إلى القيم العليا التي تقوم بها مصر قبل أن تقوم بكنوز
تراها ، بما تخلعه على الأمة من صفات تعلى مستواها ، فوق ما تعلية
القيم المادية ، كمثل ما ترتفع القيمة الذاتية للمعادن عندما يضاف إليها
وصف الذهب . وزادت قيمنا العليا قدر ما خسرت من قيمتها إنجلترا .
« وثم دائماً قوتان تصطرعان — كما يقول عبقرى القوة نابليون
نفسه — هما السيف والروح ، لكن الغلبة دائماً للروح مع امتداد الزمن » .



الباب الثاني

المذبحة والحريق



المذبحة :

استطرد أشبال القنال للقتال وارتفعت فضائل الوطنية المصرية إلى ذروتها . فالتجمت كلها إلى تلك اللبقة المرموقة بآمال مصر حيث يسيل الطهور من دمها ، واحتدم الجهاد وتعالى الاستشهاد .

وكانت أفاعيل العدو في منطقة التل الكبير في الأسابيع الماضية تنفي عن معركة كبيرة يحشدون الآلاف لها ، فلما لطمتهم مصر لطمتها في ١٤ من يناير ، جن لهم جنون ، فلم تعد الحرب عندهم حرباً ، بل استحالت مذبحة ، تبرر الغاية فيها كل وسيلة لها .

ففي ١٥ من يناير سلطوا المدفعية الثقيلة على مدينة التل الكبير وحاولوا اقتحام حمادة التل الكبير ، فردهم الغدائيون وجنود البوليس مدحورين .

فانقضت القوات البريطانية في الغداة على بلدة التل الكبير وأسرت ١٥٠ من الجنود ومعهم قائدهم وهو لواء بالبوليس ، واشتدت بينهم وبين الغدائيين مواقع اشتركت فيها الطائرات للمرة الأولى في منطقة التل

الكبير تقاوم رجالا في القرى ! وفي غداة قطعت أوصال محافظات القتال ، فتمت المواصلات الحديدية فيما بينها ، وأعلنت إنجلترا أنها تحارب في القتال صونا لسمعتها . .

أما أنها الحرب فهنيئاً لها الحرب العظمى مع الفدائيين !
وأما سمعتها فهل تراها بقيت لها سمعتها ؟

وفي الغداة أقبل طراد بريطاني من أسطول البحر الأبيض المتوسط على ميناء بور سعيد !

وما يريدون إلا تكرار حادث ضرب الإسكندرية منذ سبعين عاماً ، وتحريض الجاليات الأجنبية للانتفاض على وطنها الثاني ، مثلما انتقضت من سبعين عاماً !

وفي ٢٠ من يناير احتلت جنود المظلات جزءاً من مدينة الاسماعيلية ، واستولت على مقر البوليس والمباني العامة وطردت الأهالي من منازلهم ، ونقض الجنرال « أرسكين » عهده باعتبار مدن القتال مدناً مفتوحة . . !
وفي اليوم التالي نشبت معركة بين القوات البريطانية تطلها الطائرات ، وبين الأهالي غير المسلحين في الاسماعيلية ، واعتدى الإنجليز على مسجد الاسماعيلية ، واقتحموا دار المحكمة والنيابة ، وعبثوا بملفات القضايا .

هكذا لم يبق لإثم لم يبرأ ، فلم يتورعوا عن الاعتداء على دور العبادة وعلى معابد العدالة !

وأذيع إخفاق « تشرشل » في رحلته إلى أمريكا يوم وقف في « الكونغرس » الأمريكي يستضحك نوابه بأنه لا يستجدي أموالاً لبريطانيا ، ولكنه يستعدي جنوداً أمريكية للدفاع عن القتال !

ولكن ضد من ؟ ضد جماعة الفدائيين من شباب الجامعات المصرية !
وضد مصر التي تطالب بحريتها !

وفي الغداة فقدوا إربهم ، فأعدموا ثلاثة من الوطنيين رمياً بالرصاص في أثناء حملة تفتيشية في مقابر الإسماعيلية ! وفي اليوم التالي أخذوا في تشريد أهالي المدينة وعزل أحيائها ، وحشروهم زمراً مستكرمة لتصورهم ، والمدافع وراء ظهورهم ، ليقول الإنجليز إن المصريين في القناة هادئون هانئون .

وفي نفس اليوم أعلن وزير الداخلية المصرية أن وحشية مجازر الإنجليز بالقناة قد فاقت مجازرهم في دنشواي ،

وفي الغداة ٢٤ من يناير نسف الفدائيون مخازن الذخيرة ومستودعات البنزين في معسكر د أبي سلطان ، واستمرت الانفجارات والحرائق أربع عشرة ساعة ، فعلا صياح المذيعين من محطات د لندن ، واحتل الإنجليز في مصر بلدة د جنيفة ، بالدبابات وأسروا رجال البوليس فيها .

وفي نفس اليوم نشرت الصحف أن بريطانيا تشترط لمفاوضة مصر قبل الجلاء أن يكف الفدائيون عن مهاجمتها في القتال .

فإذا كان الجمعة ٢٥ من يناير وقعت الواقعة التي كانوا لها يمدون . . فأنذر الجيش البريطاني المحافظ المصري وقوات البوليس المصري في الإسماعيلية بالتسليم لجيش العدو فرفض المحافظ الإنذار ، ففتحت أبواب جهنم على دار الحكومة المصرية وجنود البوليس ومقر بلوكات النظام وضباطهم ... وانقض الإنجليز يذبجون البوليس ! الذي لا يحمل إلا عصي البوليس أو بنادقه وحلله وشاراته ! ويهدمون محافظة الإسماعيلية هدماً بالدبابات وفرق المظلات ! وصاح الجنرال البريطاني بهم ليستسلموا . فكان جواب مصر على لسان ضابط يسيل منه الدم : لن أتسلموا حجراً واحداً إلا فوق أشلائنا ،

استشهد ٤٦ ضابطاً وجندياً من جنود البوليس ، وجرح ٨٦ في طراز من البطولة مقطوع القرين ، وأسرا الإنجليز نحو ١٠٠٠ من البوليس المصري

وأعلنت الصحف أن لندن ، وافقت مقدما على هذه الخطة من ذبح رجال البوليس ١ وهدم دار الحكومة ١ وأنه قد أبحرت إحدى عشرة سفينة حربية كبيرة من مالطة إلى المياه المصرية ، ونقل لواء العاصفة ، الإنجليزى من قبرص إلى منطقة القنال .

وما أرسلت فرق العاصفة ، ولا السفن الحربية الكبيرة إلا لحدث ضخم سيحدث ، بعد إذ أخفقت في استدراج الجيش المصرى ، وأفلحت في أسرفوات البوليس المصرى وقتلها وتشيتها على مبعدة من حيث يجب أن تكون .

وإن هنت مصر برجالها ، إن إنجلترا خليفة بأن تهنى نفسها بالجيش البريطانى ، الذى عرف كيف يذبح رجال البوليس المدنى ، وهو بحلله السود كالراهب فى مسوحه السود ، كلاهما يحمى حرية الأشخاص وحرية النفس ، وكلاهما يقاوم الجريمة ، وكلاهما جدير بالحماية والاحترام ، فى أبعديات الحضارة ، وقواعد الحرب ذاتها .

عرف البوليس المصرى كيف يرفع اسم مصر فى الخافقين . فكان كمثل حرس نابليون ، يموت ولا يستسلم . بل كما قال عنهم الرئيس محمد نجيب ، بعد عام أمام النصب النذكارى الذى أقيم لهم شكراً ، وذكر :
« كفاهم فخراً أنهم كسبوا هذه المعركة بأن أحداً منهم لم يتزحزح عن موقفه ،

الحرب :

كان طبيعياً وإنسانياً أن تتظاهر قوات بلوكات النظام فى الغداة ٢٦ من يناير سنة ١٩٥٢ ، تزحف إلى القنال فتشاطر قرنائها مصايرهم فى الدفاع والاستشهاد ، بل أن تنهض مصر عن بكرة أبيها غضبا لهم ، وأن يتظاهر

طلبة الجامعات محتجين على البربرية التي ذبح بها البوليس المصري ، وكان الملك قد دعا الى قصره ضباط الجيش والبوليس ليطعموا على مائدته غداهم في ذلك اليوم احتفالاً بميلاد ولي عهد ولده .

ولم يكذب معتدل ميزان النهار حتى اشتعلت الحرائق في بعض ملاهي القاهرة ومشاربها ومتاجرها الأجنبية والمصرية على سواء ، وكان البوليس الباقي في القاهرة أعجز من أن يقارمها بعد أن تفرقت قواه في بلاد القتال ، وعجزت سلطات الأمن في وزارة الداخلية عن أن ترأب الصدوع ، إلا أن تنزل قوى الجيش إلى شوارع العاصمة ، وشجر الخلاف — والمدعوون يأكلون — بين الحكومة والملك فلم يقبل نزول الجيش إلا بعد أن قبلت شروط الملك آخر النهار .

فأعلنت الأحكام العرفية ، في بساطة ، بناء على طلب الملك ا وفي مصر كلها ، لا في العاصمة وحدها ا

ووقع ما لم يكن في حساب الحكومة ولكنه كان في حساب سواها ! أن الإنجليز والملك ، معاً ، قد استفادوا من الحوادث جميعاً ! فتسلم الملك الحكم وسبق الأحرار إلى المعتقلات ، وأعفيت الوزارة في القداة ، وأسكت صوت مصر في قصر د شايو ، بباريس حيث كان وزير الخارجية ينزل الصفحات ، كأنها الصعقات ، على الإمبراطورية البريطانية .

وبنح الحكم الشعبي نفسه دون أن يدري ما دهاه ا

وأصلحت الخيانة الداخلية بال وزارة الخارجية البريطانية .

ووليت الحكم وزارة لم تحم ظهور الفدائيين ، فلم يستطيعوا أن يحاربوا العدو الخارجي من الأمام والعدو الداخلي قد برز لهم من الورا .

وتلاحقت الوزارات ، مثنى وثلاث ورباع وخماس است وزارات

في ستة أشهر ا

وخفي النور ولم تحب النار .

كان أسوأ الناس ظناً بالإنجليز يخالفهم يستدرجون البوليس المصرى كله للقتال ليأسروه أو ليقتلوه ، فيجردوا البلاد من شرطتها ، ثم تدور المذابح ويقع التدخل ويعاد تمثيل رواية صيف سنة ١٨٨٢ فى الإسكندرية بالجيوش والأساطيل .

لكن الذى وقع فى ذلك اليوم أمكن الإنجليز من أغراضهم جميعاً ، فى برامة عذرية لإنجليزية على حين كربت مصر لما ألم بها وألقيت عليها تبعات الحريق دون تمحيص . وبعد أن كانت مذبحه البوايس قد هاجت مشاعر العالم من أجل مصر ، عشية ، فغفر العالم فاه مشدوها فى الغداة ، بما حدث فى مصر ، وأنساء الحريق حينما عوار الاستعمار .

ولكن السؤال سيبقى قائماً : ما الحقيقة فى مؤامرة حرق القاهرة ؟

وإلى أن يجد هذا السؤال جواباً مسلماً سيبقى مهدداً ، سلام حواضرنا وعواصمنا ومعاهد القاهرة ، التى آلت الى الحضارة المعاصرة ، تحايا من القرون الغابرة ، ليس لها نظائر . ولن يغمض جفن الحكومة بقضى حتى تضع اليد على مظان هذه القارعة التى جدلت بها مصر فى معركتها المظفرة .

وإلى أن يتم التحقيق فى أسباب الحريق ، سيكفينا قدر مسلم ، من غير حاجة لتحقيق ، هو أن الحرب التى شنها الإنجليز على أسباب الأمن عندنا ، واستدراج بوليسنا الى القنائة ، وذبحه ، وأسرهم ، وإبقاء القاهرة بلا جند ، قد مكنت للهباج أن يتفاقم ، وللفتنة أن تعم ، وللنار أن تشتعل وتستفحل ، أى للوافة أن تقع ، وللانقلاب أن يتم .

أجل : ستدير إنجلترا وجهها للمستقبل ، وفيه بعض آثار ذلك الحريق ، وعليها كسف من المسؤولية عن أسبابه .

وإذا كانت كسبت معركة فإنها لم تكسب الحرب .

* * *

سبحانك رب ، ولك الحجة البالغة ، إن مصر كنانة الله ، من أرادها بسوء قصمه الله . فلئن كانت حرائق ٢٦ من يناير خيانة كبرى إنها كشفت للشعب خصومه مرة أخرى .

فلم يك معدى عن مواجهة الخصم الداخلى والخصم الخارجى فى وقت معاً . وكان على الأسلحة المصرية الفتية أن تمنح برسانتها بسواعد الأبطال من أمثال ، أحمد عصمت ، . وفى ظلمات اليأس دقت نواقيس الزمن ، وقامت ثورة الجيش (٢٣ - ٢٦ يوليو) لتخلع الملك ، وتدير وجهها الى الميدان الخارجى ، بعد ان حمت ظهرها فى الميدان الداخلى .

وطلع الفجر الجديد .

وأصبحت مصر لنا ... فاستطاعت أن تصنع الكثير الكبير فى بضعة أشهر . وستصنع على اسم الله ما هو أكثر وأكبر . وما الانتصار الا إرادة أن نتصر .

أصبحت مصر للمصريين . فصنعت فى بعض عام ما لم تقدر عليه من قديم الزمان . لم يعد تاجها حلية لرجل . ولا أرضها الكثيرة وقفا على طائفة . وانفتحت أمامنا الطريق لنبلغ حيث نكون فى الوطن كما كنا فى الدين ، خير أمة أخرجت للناس ،

فأهذه الثورة الثالثة فى نهضة منتصف القرن ، ، بيضاء من غير سوء أو إهراق دم ، إلا آية أخرى على أن نهضتنا لن تتأخر أو تتقهقر . وأنها دورة من دورات الزمن ، بالغة شأوها بإرادة الله ، لا معقب لأمره . ولا معوق لقدره . حقيق علينا أن نحمل فيها أعباءنا - أيا كانت وأينما كنا - فى حقول الحضارة أو ميادين التضحية .

وسبق نورتنا الثاقبة في القنال ورقتنا الراجحة في مجامع الأمم
المتحدة ، والصوت المسموع في متدائها .

فلن يكون لك صوت إلا أن تكون قويا .
ولن يكون سلام مع استعمار .

وسنتطلع ، كما سنتطلع الأجيال المقبلة ، إلى آيات البطولة التي سطرها في
ألواح تاريخنا أساد القنال . نرى في أنوارها وجه الوطن الغالي ، فلا
تعرضنا عقبة إلا اقتحمناها ، فبدلنا كل شيء ، من أجل مصر .

